

تمثيلات الذاكرة الجماعية عند أدباء الغرب الإسلامي

Representations of collective memory among the writers of the Islamic West



د. إيمان بوقردون *

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة (الجزائر)

imene.boukerdoune@univ-emir.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/04 تاريخ القبول 2025/05/24 تاريخ النشر 2025/06/03



ملخص:

تعتبر الذاكرة مكونا أساسيا من مكونات الشخصية الإنسانية عموما والأدبية على وجه الخصوص، فهي التي تزود الإنسان/ المبدع بمختلف الوقائع والأحداث والشخص والصور ، بل والفكر والرؤى المختلفة ، وقد تكون هذه الذاكرة فردية خاصة بالمبدع أفرزتها تجاربه الذاتية ومشاربه الخاصة، وقد تكون جماعية عززتها وشائج مختلفة وممرات مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد والأمة الواحدة، كالتى جمعت أبناء العدوتين المغربية والأندلسية تاريخية كانت أو سياسية أو اجتماعية ، فأنتجت مادة أدبية مقاربية فى الرؤية الفكرية والتشكيل الفنى .

الكلمات المفتاحية : الذاكرة ، الجماعية ، المغرب ، الأندلس

Abstract:

Memory is an essential component of the human personality in general and literary in particular, it is the one that provides the human / creator with various facts, events, characters and images, and even thought and different visions, and this memory may be individual for the creator produced by his own experiences and his own stripes, and may be

* المؤلف المراسل

collective strengthened by different bonds and common corridors between members of the same community and one nation, such as those that brought together the sons of the Moroccan and Andalusian enemies historical, political or social, producing literary material convergent in the intellectual vision and artistic formation.

key words: memory, collective, Morocco, Andalusia

مقدمة

إن الظروف الخاصة والمشاركة بين المغرب والأندلس حملت الأدباء على أن تتقاطع أفكارهم وتتشكل بينهم مساحات واسعة للذاكرة الجمعية المشتركة ، ولعل أهم مكوناتها العوامل التاريخية ممثلة في مرحلة الفتح الإسلامي ونشأة الدولة وما انجر عنها من خطابات أدبية شعرية ونثرية تحمل البعد الحضاري المشترك بين الأمصار الفاتحة والمفتوحة ، وتأتي بعدها العوامل السياسية المشتركة والتي شكلت خطابا مقاربا خاصة ما تعلق بشعر الأزمات والنكبات و البعد عن الأوطان ، دون أن ننسى العوامل البيئية والجغرافية ، فأهل المغرب والأندلس ظلوا يتوقون إلى المشرق العربي كمصدر للإشعاع الحضاري من جهة ، ومقام للشعائر الدينية من جهة أخرى وقد كان هذا سببا في تشكيل مادة مشتركة ثرة بين الأدباء المغاربة والأندلسيين ، وتأتي هذه الورقة البحثية لتجيب عن أسئلة أهمها : كيف تمثلت الذاكرة الجماعية في خطابات هؤلاء الأدباء؟ وكيف استثمر هؤلاء الأدباء تلك الأحداث ليخلقوا منها صورا مقاربة في الرؤية الفكرية والبناء؟ وهل استطاعت ذاكرة الأدباء المشتركة أن تؤكد لحمة العدوتين كما أكدتها كتب التاريخ وغيرها؟

أولا : مفهوم الذاكرة

الذاكرة مظهر من مظاهر القدرة الإلهية بل والعظمة الإلهية، هي ذلك الجهاز الخفي الذي يحفظ للإنسان وجوده وتفاعله في الكون والحياة البشرية. ذلك أنها نتاج مجموعة من الخبرات وثمره التجارب التي تمضي وتختلف وراءها ما يحدد شخصية الإنسان ويفسر سلوكاته في كثير من الأحيان. فالذاكرة تقوم بدور "الغراء لخبراتنا الشخصية وهي التي تؤدي دور التكامل بين الماضي والحاضر والمستقبل"¹.

وتجدر الإشارة إلى أن الاهتمام بظاهرتي التعلم والتذكر قديم قدم الإنسان وقدم المعرفة الإنسانية، ارتبط بجهود الفلاسفة اليونان، وقد دارت كثير منها حول إشكالية تخزين المعلومات في الذاكرة البشرية، وتطورت في العصر الحديث خاصة بعدما اتصلت بعلم النفس وخضعت لمباحثها للمنهج التجريبي، وقد تزامن نشاط علم النفس المعرفي مع علوم الطبيعة والحياة في نهاية ق 19م وبدايات ق 20م ليعطي نتائج مبهرة متعلقة بالذاكرة .

ثانيا : إرهاصات صناعة الذاكرة الجماعية في الخطاب الشعري العربي القديم

إذا كانت شاعرية العرب في الجاهلية قد تأثلت من اجتماع عوامل معينة ساهمت في ذلك الإنتاج الغزير والفيض العميم من الشعر ، على رأسها اللغة العربية التي هي "لغة شعرية غنائية تتميز بجرس ورنين مفرداتها، ثرة بما فيها من دقة التعبير وكثير الترادف مساعدة على تنويع القوافي والأوزان" ²

فقد آزرتها عوامل أخرى مشتركة عززت هذه الشاعرية من جهة، وخلقت ذاكرة جماعية بين الشعراء من جهة أخرى، هذه العوامل التي راح الشعراء يحومون حولها وينسجون منها خيوط تجاربهم ويلونون بها خبراتهم وثمار معارفهم.

وتأتي في مقدمتها الحياة البدوية، تلك الحياة التي كان من شأنها أن تجعل الطباع البشرية متقاربة تتميز بقوة الوجود وشدة الالتهاب³، وأن تصنع مساحات مشتركة كثيرة بين شعراء البيئة الواحدة، وفي مقدمتها الوقوف على الأطلال التي هي مظهر من مظاهر الحياة الشاقة المشتركة.

عبر عنها امرؤ القيس قائلا⁴:

قفنا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وعبر عنها زهير فقال⁵:

وقفت بها من بعد عشرين حجة
فلأيا عرفت الدار بعد —وهم
وصورها النابغة في قوله⁶:

وقفت بما أصيلا لا أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد.
وعبر عنها بشامة بن الغدير⁷:

فوقفت في دار الجميع وقد جالت شؤون الرأس بالدمع.
لقد تمكنت طبيعة تلك الحياة من رسم صورة متقاربة في أذهان الشعراء الذين وجدوا أنفسهم يودعون مواطنهم و مراتع صباهم واجتماعهم مع أحببتهم، وحالت دون هذه المشاهد مشاهد الوداع والوقوف أمام ما بقي من آثار تلك الديار بمشاعر تفيض لوعة وتحسرا. وإن اختلفت طرق تعبيرهم فإن الذكريات تتقارب وتتداخل لتشكل منهلا واحد للتجربة الشعورية عند شعراء الجاهلية .

ولعل من أهم المشتركات بين الشعراء والتي صنعت ذاكرة الشعراء في الجاهلية "الزمن" الذي وقف الشاعر الجاهلي أمامه حائرا، وهو يمضي بين يديه ويترك له من الأحداث والمواقف ما يدرك بعضها، ويقف بفكره المحدود وعقيدته المضطربة عاجزا أمام أخرى.
يقول في ذلك لبيد بن ربيعة⁸ :

بمن تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها
وقول عميرة بن جعل التغلبي⁹ :

ألا يا دار الحي بالبردان خلت حجج بعدي لهن ثمان
وقول زهير بن أبي سلمى¹⁰:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله لكني عن علم ما في غد عم

وللمكان أيضا دور كبير في خلق الذاكرة الجماعية عند شعراء الجاهلية، ففي رفض صارخ لهذه البيئة القاسية ترسم في أذهان الشعراء ومخيلاتهم صورة متقاربة وإن تباعدت حول آثار هذه الحياة البدوية المضطربة والطبيعة القاسية التي تسلطت على ربوع أحبواها، وأماكن ألفوها، فحولتها إلى قفار بعد أن كانت ملتقى للأحبة تلتئم فيه الأرواح، وهنا

نجد الشعراء تحركهم التجربة الواحدة وإن تعددت تفاصيلها ليرسموا لنا صورا تقارع بعضها بعضا، ومن ذلك :

قول زهير بن أبي سلمى¹¹

بها العين والأرآم يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
أثافي سعفا في معرس مرجل ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلّم
وقول المرقش الأكبر¹²

إلا من العين ترعى بها كالفارسيين مشوا في الكم
وقول الحارث بن حلزة¹³

لا شيء فيها غير أصورة سفع الخدود يلحن كالشمس
أو غير آثار الجياد بأعراض الجهاد ، وآية الدعس
ولعل من العوامل المؤثرة في شاعرية العرب أيضا والتي صنعت ذاكرتهم تلك النفس
العربية العزيزة الشريفة التي أكسبتها الحياة الجاهلية طباعا على رأسها القوة والجلد وشدة
التحمل وقلة الجزع .

قال طرفة معبرا عن ذلك¹⁴ :

وقوفا بما صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلد
وقول الحارث بن حلزة¹⁵:

ويئست مما قد شغفت به منها ولا يسليك كاليأس

وإلى جانبها عامل آخر من عوامل الشاعرية نربطه دائما بإنتاج مادة أدبية متقاربة
تكون فيها الذكريات متداخلة وهي العصبية القبلية، ومنها تشكلت ثنائية (العصبية /
الشعر) وهي قوية الحضور في الشعر الجاهلي ، فكما كانت تغذي الشعر وتحركه ، صار
الشعر عندهم أهم أساليبها وأوثق أسبابها ، بل أصبح للشاعر القول الفصل في إشعال

نار الحرب أو إخمادها ، في تهوين الأحداث أو تهويلها ، كما جاء في قصيدة عمرو بن كلثوم والتي قال فيها ¹⁶:

على آثارنا بيض حسان	نحاذر أن تفارق أو تمونا
ظعائن من بني جشم بن بكر	خلطن بميسم حسبا ودينا
أخذن على فوارسهن عهدا	إذا لاقوا فوارس معلمين
ليستلبن أبدانا وبيضاً	وأسرى في الحديد مقرنين

وبالمقابل معلقة زهير والتي جاءت في سياق الحرب لكن مدحا لصنيع الحارث بن عوف والهرم بن سنان وهما يخمدان نار حرب دارت رحاها عقودا من الزمن ، جاء فيها ¹⁷ :

يمينا لنعم السيدان وجدتما	على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما	تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

ثالثا / مكونات الذاكرة المشتركة في الأدبين الأندلسي والمغربي .

1. الذاكرة الجماعية و سلطة التاريخ

لعلنا لا نجد كتابا يؤرخ للفتح الإسلامي للأندلس إلا واستُهل بالحديث عن فتح المغرب العربي ، ما جعل هذين الرقعتين الجغرافيتين متلازمتين في مخيلة القارئ/المتلقي، يستلزم ذكر إحداهما استحضار الآخر.

بل ذهب الكثير من المؤرخين إلى اعتبارهما رقعة جغرافية واحدة، فهذه التسمية (المغرب العربي) تختلف بين القدماء و المحدثين إذ تتسع عند بعضهم كعبد الواحد المراكشي في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب " لتشمل شمال إفريقيا و الأندلس ¹⁸ وعند الاصطخري والذي اعتبر " أن المغرب نصفان فأما الشرقي منه فهو برقة و إفريقيا ، وأما الغربي فهو الأندلس " ¹⁹ و عبد الله الحمادي في كتابه " دراسات في الأدب المغربي القديم " ²⁰ ويضيق معنى (المغرب العربي) عند البعض الآخر ليقصر على ما يعرف حاليا بشمال

إفريقيا الذي يمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى الحدود المصرية الليبية شرقا ، وبهذا المعنى استخدمه ابن عذارى في كتابه " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب " ²¹

وقبل الحديث عن فتح إسبانيا يورد المؤرخون مراحل سبقت في شكل مهد لهذا الفتح مثله في الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا ما يخلق نوعا من الترابط في ذهن القارئ/ المتلقي بين الأندلس والمغرب، بداية بفتح برقة إلى فتح طرابلس وانتصار العرب على البيزنطيين، مع ذكر لأبرز أعلام تلك الحقبة التاريخية وقادتها كمعاوية بن حديج وعقبة بن نافع الفهري وأبي المهاجر ، وحسان بن النعمان وانتصار الكاهنة عليه، ومن ثم مقتلها، ليختم الحديث في هذه المرحلة بذكر موسى بن نصير وطارق بن زياد والتي تعتبر فاتحة الحديث عن فتح إسبانيا وعن الأندلس الإسلامية ، وما كانت عليه قبل إسلامها .

ولا شك أن للمغرب العربي والأندلس ظروفهما التاريخية الخاصة، ومما لا مشاحة فيه أيضا أن فتح هذه الأمصار لم يتم بسهولة ، يقول حسين مؤنس وهو يتحدث عن فتح الأندلس " لقد استوقفتني المقاومة الشديدة التي أبدتها حامية ماردة في مقاومة موسى بن نصير ، وما تحمل المسلمون من خسائر في فتح ذلك البلد. " ²²

وهو حال فتح العرب للمغرب والذي لم يكن يسيرا فقد وجدوا منهم أنواعا من المقاومة " بل كان فتح هذه البلاد فريدا في بابه بما اقترن به من صعوبات و مباغتات " ²³ لكن المغاربة " لم يقاوموا الفاتحين في بادئ الأمر تلك المقاومة الشديدة إلا لجهلهم حقيقة الإسلام ، وعدم إحاطتهم بمحاسنه ومزاياه " ²⁴.

ومما لا شك فيه أن الأدب كان يسير هذه المحطات جميعا لأهميتها وقيمتها التاريخية ، وإن كان الكثير منه قد ضاع في جملة ما ضاع من تراث الأمة الفكري والأدبي ، ولم تبق من هذا الإرث -في تلك المرحلة- إلا قليل من الآثار التاريخية التي حفظت لنا بعض معالم الحركة الأدبية آنذاك .

ثم إن ما وصلنا لم ينظم في بادئ أمره بلسان الأمصار المفتوحة وهو أمر طبيعي تفسره وتعضده مبررات مختلفة في مقدمتها أن هذا اللسان ليس عربيا وأن أهله ليسوا بأهل البيان، وأن هذا وذاك يتطلب وقتا وأخذا بأسباب تعريب اللسان وتعلمه النظم والبيان، ولا غرو "فالبلاد في بداية الاستعراب والفترة يسودها الاضطراب وعدم الاستقرار، ومن البديهي أن لا نرى أدبا ولا أدباء إلا ما كان من رجال الدين والفقهاء الذين يقدمون لتثقيف أهل البلاد" ²⁵ وهي إشكالية طرحها المهتمون بالأدب المغربي في مرحلة النشأة تدور حول إمكانية اعتبار الأدب الذي وصلنا من مرحلة الفتح بلسان الفاتحين أدبا مغربيا أم غير ذلك.

وهو الحال بالنسبة للأندلس وإن كان التعريب فيها قد تم بطريقة أسهل، والحركة الأدبية والثقافية كانت أسرع من مثيلتها بالمغرب لعوامل أهمها استقرار الفاتحين بها وامتزاج العرب مع غيرهم ...

وخصوصية المرحلة في هذه الأمصار المفتوحة وتشابه الأحداث فيها وكذا الاضطرابات الأولى التي تعيشها الدول المفتوحة عموما جعلت محاور النصوص الأولى التي وصلتنا - وإن لم تكن بلسان أبناء البلاد المفتوحة - متشابهة متقاربة، فالتجارب متشابهة والأحداث كذلك ما شكل لنا ذاكرة أدبية مشتركة بين الأدباء.

ومن النصوص البكر التي نحسبها قيلت في المراحل الأولى لفتح المغرب العربي أبيات في الفخر أطلقت من رجازين بعد مقتل جرجير ²⁶ بضربة من سيف عبد الله بن الزبير وأسر ابنته، جاء فيها ²⁷:

يا ابنة جرجير تمشي عقبك
إن عليك بالحجاز ربتك
لتحملن من قباء قربتك

وفي السياق ذاته ونحن نتحدث عن الأبيات والقصائد الأولى التي تزامنت والمراحل الأولى للفتح الإسلامي والتي صورت جانب الغزوات التي تم خوضها وكان القلم مصورا لها أبيات للأغلب بن سالم مصورا شجاعته وحسن بلائه في الحروب ، جاء فيها²⁸ :

أضرب في القوم ومثلي يضرب فإن يكن حربا فإني الأغلب
لا أجزع اليوم ولا أكذب

وهو حال الحركة الأدبية في الأندلس وإن كانت ملامحها أوضح مما كانت عليه في المغرب العربي ، لكن خطواتها هي الأخرى لم تكن حثيثة لما كان فيها من نزاعات ممثلة في الحروب الدينية بين الإسبان و الفرنجة والمسلمين ، وصراعات عرقية بين البربر والعرب ، ونزاع قبلي بين العرب أنفسهم قحطانيين(جنوبا) وعدنانيين(شمالا) ، ما يعني أن المجتمع كان قلقا مضطربا دل عليه عدد الولاة الذين تداولوا على السلطة في المرحلة الأولى للحكم الإسلامي في الأندلس .

لذلك فإن أول ما وصلنا من شعر في تلك الفترة لا يمثل إلا نزرا يسيرا يصعب معه الحكم على طبيعة الإبداع الأدبي آنذاك. لكن المشترك بينه وبين بدايات الحركة الشعرية في المغرب العربي والذي أدى إلى تشكل مادة متشابهة إلى حد بعيد تلك الظروف التاريخية التي طبعت المنطقتين المفتوحتين والتي جعلت الشعراء يحومون حول ذات الموضوعات وذات الأفكار، ما أدى إلى تشكل مساحات مشتركة واسعة للذاكرة عند الشعراء، ولعل أول ما يصادفنا أبيات في الفخر أيضا كتلك التي قيلت لابنة جرجير وهي منقاداة إلى أسيادها العرب، والأبيات لأبي الأجر جعونة بن الصمة وهو عربي دخل الأندلس ، قال يفتخر بعروبه²⁹ :

ولقد أراني من هواي بمنزل عال ورأسي ذو غدائر أفرع
والعيش أغيد ساقط أفنانه والماء أطيبه لنا والمرتع

ومن الشعراء القلائل أيضا الذين مثلوا مرحلة الفتح الإسلامي للأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي من أشرف القحطانيين في الأندلس ، وقد شهد فتوح المسلمين بإفريقيا وأبلى فيها بلاء حسنا ووفد واليا على الأندلس 125هـ أيام حكم هشام بن عبد الملك ، وله شعر يصور المرحلة بما فيها من تجاذبات واختلالات كتلك الأبيات التي وجهها معاتبا للحكام المروانيين لنصرتهم القيسيين على اليمينيين ؛ قال فيها³⁰ :

وأفأتم بني مروان قيسا دماءنا	وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
وقيناكم حد القنا بنحورنا	وليس لكم خيل سوانا ولا رجل
فلما بلغتم قبل ما قد أردتم	وطاب لكم منا المشارب والأكل
تعاميتم عنا بعين جليلة	وأنتم كذا ما قد علمنا لنا فعل

وإن كانت الأبيات التي بين أيدينا قليلة لا تشبع حاجة المتلقي المهتم بأمر الحضارة العربية الإسلامية في الغرب الإسلامي ، إلا أن الذي نستشفه من خلال ما وصلنا أن الأدب كان يدور حول الموضوعات ذاتها ما خلق مادة شعرية مشتركة ، وجعل المساحة المشتركة كبيرة بين الأدب الذي قيل في الأندلس والمغرب العربي .

2. العوامل السياسية: ذاكرة الأدباء ومحطات الصراع

بذلت الجهود الكبيرة من أغلب حكام المغرب والأندلس في سبيل تطوير مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وسعى الكثير منهم إلى استتباب الأمن وبناء حكم إسلامي راشد، لكن الفتن الداخلية والخارجية ما فتأت تعصف بمهاتين العدوتين . ففي الأندلس "كان سقوط الخلافة الأموية مدعاة إلى بروز النزاعات بين الأندلسيين وزادت في حكم ملوك الطوائف، وقد أدت هذه الخلافات بالأمراء المسلمين إلى الاستسلام للممالك الإسبانية، ودفع الجزية لها، ولم ينته حكم ملوك الطوائف على أيدي المرابطين عام 1091م إلا بعد أن استولى الإسبان على كثير من عواصم الثغور ومنها طليطلة"³¹.

ومر على الأندلس حكم المرابطين ومن بعدهم الموحدون ولم تحمد نار التنافس والتناحر على الحكم والسلطة في الديار الأندلسية ، وفي الوقت الذي كان فيه أبنائها ينفصلون ويتشتتون ، كان أعداؤهم من ورائهم يلتفون ويخضعون المدن والحصون واحدة تلو الأخرى، لتبقى مملكة غرناطة وحيدة تقاوم ، وقد حاولوا جاهدين المحافظة على ما تبقى من تلك الحضارة الزاهية لتقضي عليها الفتن الداخلية في البيت الحاكم وتنتهي معها آخر حلقات الحكم العربي في الأندلس.

وفي المغرب أيضا كان للخلافات والأطماع الداخلية والخارجية تأثير كبير في تاريخ الدولة ، ومحطات كثيرة تلك التي خاضت فيها العدو المغربية مخاضات عسيرة في سبيل المحافظة على الأرض واستقرارها.

وكان الأدباء والشعراء هنا وهناك يسايرون هذه المحطات جميعا، بل تشتد عزائمهم وتفويض قرائحهم بزيادة هذه الأحداث السياسية ، كيف لا والأدب مرآة كل عصر. وقد صورها شعراء المغرب و الأندلس، وصوروا معها بعدهم عن أوطانهم طواعية أو كرها، حتى إنه يصعب حصر المحطات المشتركة بين شعراء العدوتين في هذا المقام، والتي خلفت ذكريات مشتركة تدور حول الشوق والحنين إلى الأرض ، ومن ذلك أبيات لابن خميس التلمساني يصور فيها جانبا من الصراع في عهده بين أولي الأمر التلمسانيين وبين المرينيين، قال يصف خروجه من تلمسان فارا مكرها³²:

وأغروا بنفسي طابعا
سرارا فجاءوا لقتلي صراحا

فشاورت نفسي في ذا فما
رأت لي بغير الفلاة فلاحا

وبالرغم من أن ابن خميس قد استقر في غرناطة ووجد فيها ضالته وراحته وأفاض في مدح حكامها، إلا أن حنينه لتلمسان لم يخمد ، وظل يوشح بها قصائده ، وله في شعر الحنين إليها قصائد لامعة، من ذلك التي قال فيها³³:

سل الريح إن لم تسعد السفن أنواء
فعند صباها من تلمسان أنباء

وإني لمشتاق إليها ومنبئ بعض اشتياقي لو تمكن إنباء
ونلتقي بتجارب مماثلة لشعراء أندلسيين دفعتهم الظروف إلى البعد عن أوطانهم ، وقد
خلفوا وراءهم ذكريات أضحوها يعيشون على أثرها، ومنها أبيات للشاعر ابن حمدون
المالقي في حنينه إلى وطنه، قال فيها³⁴ :

تناءت ديار قد ألفت وجيرة فهل لي إلى عهد الوصال إياب
وفارقت أوطاني ولم أبلغ المنى ودون مرادي أبحر وهضاب
ومهما اختلفت أسباب البعد عن الأوطان فإن عملية الاستدكار واحدة، وملاحظها
متشابهة ، ويبقى محور الحنين إلى الأوطان متقاطعا مشتركا بين الشعراء يستحضرون
سهولها وهضابها ونسيمها يدفعهم في ذلك شعور مشترك هو الحب والحنين .
فإذا ما ضاعت هذه الأوطان أو انتهكت حرمتها تفجرت ينباع الإحساس عند
الشعراء، وهالهم ما يرون من تحول حال بلادهم من استعباد وتشرد وضياح ، و راحوا
يتفاعلون مع الوقائع التاريخية المختلفة ويرثون مدنهم وقلاعهم الضائعة ، وبها طوروا فن
الرثاء ولم يقفوا به عند حدود رثاء الولد ، فكانت مرثياتهم في مدنهم وممالكهم تتفوق على
رثاء النفس والولد.

ولهذه الظاهرة حضور قوي في الشعر العربي عامة والمغربي خاصة بل " تتجلى هنا قوة
خاصة في الشعر المغربي وهي التأثير العميق الصادق"³⁵ فللمغاربة والأندلسيين كما سبق
الذكر وضعهم الخاص الذي جعل تشبثهم بأوطانهم أكثر من غيرهم...

ومن وقائع التاريخ التي كان لها أثر بالغ في نفوس الشعراء المغاربة النكبة التي ألمت
بالقيروان والتي كانت مهدا للحضارة والعلم والأدب والإبداع ومنارة للإشعاع الفكري ،
فلما حوصرت وخربت راح الشعراء ييكونها في قصائد دلت على عظم الفاجعة .

ويصور لنا نص مرثية ابن رشيق نموذجا للاعتداء على المنجزات الحضارية في التاريخ
العربي، فالشاعر هنا ييكي القيروان وقد استباحها الأعراب الهلاليون، ولعل وقع المصيبة

كان أكبر لأن الذين فتكوا بما عرب مسلمون وقد فعلوا في القيروان ما يفعله غير المسلم،
ومما جاء في نص المراثية :³⁶

كم كان فيها من كرام سادة	بيض الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة وال	لله في الأسرار والإعلان
علماء إذا ساءلتهم كشفوا العمى	بفقاها وفصاحة وبيان
كانت تعد القيروان بهم إذا	عد المنابر زهرة البلدان

وقد علقت هذه القصيدة في أذهان الشعراء ، ومنهم أبو البقاء الرندي صاحب المراثية
النونية الشهيرة التي بكى فيها الأندلس ، والتي جمع فيها حواضر الأندلس المنكوبة جميعا،
و مطلعها ³⁷:

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته أزمان

فقد عارض أبو البقاء الرندي نص ابن رشيق واستحضره غداة بكائه جنة الأندلس،
ومعارضته تتجلى على مستوى الإيقاع وهو اعتماده القافية والروي ذاتهما، وحتى الموضوع
، فقد وجد في تلك القصيدة ما ينطلق منه للتعبير عما ألم بالأندلس... ولكن الفرق
بينهما يكمن في آثار الفاجعة وتداعياتها ، ففاجعة القيروان أقل أثرا من نكبة الأندلس،
هذه الأخيرة التي أوقعها النصاري في شباكهم بعد تخطيط دام لقرون، إذ لم يهدأ لهم بال
حتى استعادوا الأندلس ، أين استغلوا تفرق الأندلسيين وتشتتهم ، فهجماتهم إذا كانت
بعيدة الأهداف، أرادوا بها أساسا القضاء على الإسلام في أرض الأندلس، وطمس معالم
الهوية العربية الإسلامية وهو ما صورته مراثية أبي البقاء الرندي فكانت أكثر وقعا في
النفوس من مراثية ابن رشيق .

لكن الشعارين قد نجحوا في الانطلاق من بؤرة واحدة ، أين شخصا الفضاءين ، وجسدا أوجاعهما في نصين إبداعيين تقاربت فيهما الصورة والأداء، للتعبير عن ذاكرة متعبة متألمة تبكي المكان وتبكي معه ما بقي من ذكرى...

3. الطبيعة والجغرافيا وبناء الذاكرة الجماعية

- الطبيعة في المغرب والأندلس : فضاء تقاطع بين الشعراء

حركت الطبيعة الساحرة في المغرب والأندلس مشاعر الأدباء، ودفعت يراعهم لتصوير كل ما تقع عليه العين ، ولعل ظروف الفتح التي تحدثنا عنها، وما تعرضت له هاتان العدوتان عبر التاريخ قد ولد في النفس حبا غير طبيعي للأرض ، وخوفا دائما على ضياعه وتشتته والعودة إلى استعباده.

ولعل هذا ما يفسر خصوصية شعر الطبيعة في المغرب والأندلس، فكأنها مشاعر مناسبة في شكل قصائد ينظمها الشاعر بجوارحه جميعا، وإذا كنا في مقام الحديث عن المشترك بين شعراء العدوتين ، فإن جمال الطبيعة هو أول دوافع هذا المشترك ، والذي خلق صورة ذهنية متقاربة لتقارب الطبيعتين .

ومن العوامل أيضا الرحلات المتبادلة بين المغرب والأندلس وما لها من أثر في تقارب الرؤى وتشابك منابع الصورة ، فقد شكل وفود العنصر الأندلسي إلى المغرب العربي رافدا من روافد الحضارة والتبادل الثقافي ..

وقد ساهمت هذه العوامل مجتمعة في تقارب الثقافتين، وتسهيل انتقال الأفكار ومناحي الإبداع بين أدباء العدوتين، وقد تمخضت عنها وحدة ثقافية اصطبغت على إثرها المادة الأدبية بصبغة متقاربة .

فألفينا صورا متشابهة جسدت لنا هذا المشترك جميعا ، وغدا شعر الطبيعة الأندلسي مرجعية لشعراء المغرب ينهلون منه ، ويتكؤون عليه ، وكأنها ذاكرة واحدة يستلهم منها شاعران ، ومن ذلك قصيدة للشاعر الجزائري بن عمار والتي قال فيها³⁸ :

في روضة نسج الربيع بساطها من سندس ووشى مطارفها المطر
غناء تسلي رونقا ونظارة قلب الشجي إذا أجال بها النظر
باكرتها ونسيمها متأرجح يفشي الذي سترته أكمام البشر
وهي قصيدة تتداخل و قصيدة ابن زمرك الأندلسي ، وتتكى عليها فنيا ، إذ يصرح ابن
عمار قائلا " وقد ذكرني هذه الرائيات المسطورة رائية وقعت لي ليست رياض إجادتها
بمطورة ، وهذه القصيدة من طرازي الأول وتلاذي ، وأوليات إنشائي وإنشادي " 39
جاء في قصيدة ابن زمرك⁴⁰ :

هب النسيم على الرياض مع السحر فاستيقظت في الدوج أجفان الزهر
ورمى القضب دراهما من نوره فاعتاض من ظل الغمام بها درر
نظم الأزاهر بعدما نظم الندى يا حسن ما نظم النسيم وما نثر .
فمرد الذاكرة المشتركة هنا هو معينها الأساس وهو الطبيعة ، والتي وجدها الشعراء خير
مؤنس ورفيق ، فراحا يصبان أشجانهما في رياضها ونسيمها . فتقاطع التجارب وتقاربها
يشد الصور إلى بعضها شدا ، ويجعلها تنساب وكأنها من مجرى واحد .

- الشوق إلى البقاع المقدسة مكون للذاكرة المشتركة بين شعراء المغرب والأندلس

إذا كان القرب الجغرافي بين بلاد المغرب والأندلس قد عمق وشائج القربى ، وجعل
العدوتين مترابطتين اجتماعيا وفكريا وثقافيا ، فإنه بالمقابل لم يخمد نار الشوق إلى بقاع
الله المقدسة التي ما فتأت تشتعل في أفئدة الناس عامة والمغاربة والأندلسيين خاصة إذ
لهم وضعهم الجغرافي والتاريخي الذي يزيد شوقهم وحنينهم إلى تلك البقاع ، وإذا زدنا إليه
طبيعة التنقل آنذاك وصعوبتها في البر والبحر ، وعرفنا أن مفهوم الاستطاعة يعني تحمل
أعباء الرحلة ماديا ومعنويا⁴¹ بين لنا ذلك الشعور الغريب والمتفرد العامر بالشوق والحنين
إلى تلك الديار الطاهرة.

وهذه المؤثرات مجتمعة ستخلق ذاكرة متشوقة تتوق للقبيا ، لن يهدأ قلقها إلا بالوصول ، ولهذا نجد ذاك الفضاء قد شغل وبكثرة شعراء المغرب والأندلس بمحطاته المتتابعة، من وقوف على عرفات ، ومبيت في مزدلفة، ورمي الجمرات، والطواف حول البيت العتيق، والسعي بين الصفا والمروة ، وقبل ذلك وبعده شغف الوصول وحزن الوداع، وهذه المحطات المباركة تتزاحم في مخيلة المشتاق ، وتزيد وهجا عند مشاهدة أفواج الحجيج تقبل على بيت الله ، فتجعل الشعر ينطق معبرا ، ومن نماذج ذلك قول محمد بن الجنان البجائي الجزائري في قصيدة يناجي فيها ركبا سائرا إلى مكة المكرمة ، يقول⁴² :

ياحادي الركب قف بالله يا حادي وارحم صباة ذي نأي وإبعاد
ما ينبغي عنك إلا أن تصيح له سمعا ليسأل عمن حل بالوادي
بين الجوانح نار للجوى وقدت فإن قدرت فأحمد بعض إخماد

ولعل مما يصنع الذكريات المشتركة بين المشتاقين الزيارة الفعلية لتلك البقاع المقدسة ، والتي تزيد الشوق ، وتبقي الحنين متقدما ، فليس من سمع عن ذاك المكان كمن عايش جلالته ولمس قدسيته ، يقول في ذلك الشاعر الجزائري إبراهيم التازي⁴³ :

ما حال من فارق ذاك الجمال وذاق طعم الهجر بعد الوصال
والعقل منه ذاهب والحشا ملتهب والجسم يحكي الخيال
يا قبح الله النوى إنه قتل بلا سيف وداء عضال

والصورة ذاتها ترسمها أقلام شعراء الأندلس ، من ذلك قول ابن عربي⁴⁴:

إني إلى الكعبة الغراء مشتاق فيها لعاشقها في السر أعلاق
إذا تذكرت أسراري ومشهدا فيها تحرني للبين أشواق
فالروح تائهة والناس والهة والقلب محترق والدمع مهراق

وكلها صور تتغنى بمشاعر الشوق إلى تلك البقاع المقدسة التي شكلت عند شعراء المغرب والأندلس مرجعية مشتركة ، زادها البعد تأججا، وترك في نفوس أصحابها آثارا متماثلة صنعت ذاكرة جماعية عند أهل العدوتين عموما وأدبائها خصوصا.

خاتمة وتوصيات :

- الذاكرة مكون أساسي من مكونات الشخصية الأدبية ، فلا يمكن للأديب أن يكتب ويلغي ذاكرته.
- تمثل الذاكرة بأنواعها فردية أو جماعية مرجعية للشعراء يتكئون عليها وينطلقون منها للتعبير عن فكرهم ورؤاهم.
- للذاكرة حضورها في الشعر العربي ويمكن تتبعها عبر سيرورتها الزمنية ، وقد تجلت في فنون الأدب وأجناسه المختلفة .
- ساهمت عوامل كثيرة في تشكل ذاكرة جماعية في الأدبين الأندلسي والمغربي ، سياسية وتاريخية وطبيعية .

الهوامش

- ¹ عزيزة محمد السيد ، أسرار الذاكرة الإنسانية وإمكانات العقل البشري ، دار النشر للجامعات ، ط 1 ، 2014 ، ص 08
- 2 هيوارث دن ، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ، مكتبة الثقافة العربية ، دط ، دت ، ص 94
- 3 المرجع نفسه ، ص
- 4 امرئ القيس ، الديوان، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص 111 .
- 5 زهير بن أبي سلمى ، الديوان ، شرحه وقدم له الأستاذ علي حسن فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1408هـ - 1988م ص 103.
- 6 النابغة الذبياني ، الديوان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف، القاهرة ، ، ط 2 ، ص 09.
- 7 المفضليات ، دار التقدم ، القاهرة ، 1906، ص 97
- 8 الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، ص 155
- 9 المفضليات ، ص 258
- 10 زهير بن أبي سلمى ، الديوان ، ص 110.

- 11 زهير بن أبي سلمى ، الديوان ، ص 103.
- 12 المرقشيين ، الديوان ، تحقيق كارين صادر ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1998م ص 73.
- 13 الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ص 235
- 14 المرجع نفسه ، ص 97.
- 15 المرجع نفسه ، ص 235
- 16 عمرو بن كلثوم ، الديوان ، تحقيق اميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ط 2 ، 1996 ، ص 86.
- 17 : زهير بن أبي سلمى ، الديوان ، ص 103
- 18 عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب تح محمد سعيد العريان ، محمد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط 1 ، 1949 .
- 19 إبراهيم محمد الفارسي الاصطخري ، المسالك و الممالك ، تح جابر الحيني ، دار القلم ، مصر ، 1961 ، ص 33.
- 20 عبد الله حمادي ، دراسات في الأدب المغربي القديم ، دار البعث للطباعة و النشر ، قسنطينة ، الجزائر ، ط 1 ، 1986
- 21 ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، تحقيق ج .س. كولان ، ليفي برونفسال ، دار الثقافة ، لبنان ، 1983.
- 22 حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية ، ص 70.
- 23 محمد طه الحاجري ، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي ، دار النهضة ، بيروت ، ط 1 ، 1983 ، ص 29.
- 24 عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، طنجة ، 1960 ، ج 1 ، ص 41 .
- 25 محمد الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2006 ، ص 24
- 26 جرجير : عامل الروم المتمرد على حكومة قرطاجنة البيزنطية ، حارب الجيش العربي الذي نزل العاصمة التي كان يحكمها ، وهي سبيلة ، وذلك سنة 27هـ ، ينظر ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ .
- 27 ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج 3 ، ص 91
- 28 العربي دحو ، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الإغليبية والرستمية والإدرسية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 ، ص 46
- 29 المقرئ ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 2 ، مطبعة الأزهرية ، ط 1302 ، ص 56.
- 30 ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج 4 ، ص 260.
- 31 أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1980 ، ص 15
- 32 ابن خميس التلمساني ، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ، مطبعة ابن خلدون ، تلمسان ، 1365هـ ، ط 1 ، ص 28.
- 33 المصدر نفسه .
- 34 المقرئ ، نفح الطيب ، ج 3 ، ص 365.
- 35 عبد الله شريط ، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط 2 ، 1983 ، ص 151
- 36 ابن رشيقي ، الديوان ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، لبنان ، بيروت ، دط 1989 ، ص 197
- 37 المقرئ ، نفح الطيب ، ج 4 ، ص 487

- 38 ابن عمار ، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب ، تح محمد بن أبي شنب ، مطبعة فونتانة ، الجزائر ، ص 91
 - 39 المصدر نفسه ، ص 90.
 - 40 المصدر نفسه ، 88-89.
 - 41 الربيعي بن سلامة، الشوق والحنين إلى البقاع المقدسة في الشعر الأندلسي والمغربي ، منظمة شعب الأندلس ، 2009
 - 42 محمد بن شاوش ، الغوثي بن حمدان ، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر ، دار البصائر للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2011 ، ص 339-340.
 - 43 المرجع نفسه ، ص 566-567.
 - 44 محيي الدين محمد بن علي الطائي الأندلسي ، ترجمان الأشواق ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، ص 171.
- قائمة المصادر والمراجع :
1. إبراهيم محمد الفارسي الاصطخري ، المسالك و الممالك ، تح جابر الحيني ، دار القلم ، مصر ، 1961 .
 2. ابن خميس التلمساني ، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ، مطبعة ابن خلدون ، تلمسان ، 1365 هـ ، ط1.
 3. ابن رشيقي ، الديوان ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، لبنان ، بيروت ، دط 1989 .
 4. ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، تحقيق ج .س. كولان ، ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، لبنان ، 1983.
 5. ابن عمار ، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب ، تح محمد بن أبي شنب ، مطبعة فونتانة ، الجزائر.
 6. أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1980 .
 7. امرئ القيس ، الديوان ، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان
 8. حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية
 9. الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع .
 10. عبد الرحمن علي الحجي ، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ، دار القلم ، بيروت ، ط2 ، 1981،
 11. عبد الله حمادي ، دراسات في الأدب المغربي القديم ، دار البعث للطباعة و النشر ، قسنطينة ، الجزائر ، ط1 ، 1986
 12. عبد الله شريط ، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط2 ، 1983 .
 13. عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، طنجة ، 1960 ، ج 1 .
 14. عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب تح محمد سعيد العريان ، محمد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط1 ، 1949 .
 15. العربي دحو ، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الإغليبية والرسومية والإدرسية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 ،
 16. عزيزة محمد السيد ، أسرار الذاكرة الإنسانية وإمكانات العقل البشري ، دار النشر للجوامعات ، ط1 ، 2014 .
 17. عمرو بن كلثوم ن الديوان ، تحقيق اميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ط 2 ، 1996.

18. فتح الأندلس ينظر حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية ، العصر الحديث للنشر و التوزيع ، 2002 ، ط1.
19. لاري آر سكواير ، إيرك. آر. كاندل ، الذاكرة من العقل إلى الجزئيات ، تر سامر عرار ، مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2002 ،
20. مجموعة من المؤلفين ، الأدب المغربي ، إشكالات وتحليلات ، الرباط ، ط1 ، 2006 .
21. محمد الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2006 .
22. محمد بن شاوش ، الغوثي بن حمدان ، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر ، دار البصائر للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2011 .
23. محمد طه الحاجري، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي ، دار النهضة ، بيروت ، ط1 ، 1983.
24. محيي الدين محمد بن علي الطائي الأندلسي، ترجمان الأشواق، دار صادر، بيروت، ط1.
25. المرقشيين ، الديوان ، تحقيق كارين صادر ، دار صادر ، بيروت ، لبنان، ط1 ، 1998م .
26. المفضليات ، دار التقدم ، القاهرة، 1906.
27. المقرري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج2 ، مطبعة الأزهرية ، ط2.
28. النابغة الذبياني ، الديوان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف، القاهرة ، ط2 .